قال : فلم يكن بعد ذلك إلاّ أيام قلائل حتّى توفي C تعالى وأكله الدود . وكتب على كتابي جنان الجناس لمّا وقف عليه : .

لقد ضمّ أجناس الجناس فأطربا ... وأعجزَ من باراه فيها فأتعبا .

صلاحٌ لدين ا أبدى بدائعاً ... تروق بألفاظٍ أرقّ من الصّبا .

يراه بليغ جاء بالمدح سائلاً ... مجيزاً مجيباً قولَه لا مخيّبا .

بإنشاده هذا وإنشائه لقد ... به فات من قد فاق فضلاً ومنصِبا .

فَقُسٌّ إيادٍ عند ذا الفضل ناقلٌ ... ولفظ امرئ القيس البديع هُنا هَبا .

ومن شعره لمّا أُمسك الأمير سيف الدين كَراي المنصور نائب دمشق : .

أنا راضٍ بحالتي لا مزيدي ... وبأن أزال عبدَ الحميدِ .

إنّ في أمر كافل الملك بالشا ... م عظاتٍ للحازم المستفيدِ .

جاءه بالتقليد أَرْغُون بالأَم ... س وولّى وعاد بالتقييد .

ومنه : .

سَلَبَ المهجةَ منّي ... بالجفونِ الفاتراتِ .

لم يزور البيت لم يَرْ ... مِ الحشا بالجَمَراتِ .

ومنه : .

وكم سرحةٍ لي في الرُبى زمنَ الصبا ... أشاهدُ مرأى حسنها متملّيا .

ويُسكرِني عَرْفُ الشذا من نسيمها ... فأقضي هوًى من طيبه حتفَ أَنفيا .

وأسأل فيها مَبْسِم الروض قُبلةً ... فيُبرز من أكمامه ليَ أيديا .

فا روضٌ زرتُه متنزّهاً ... فأبدى لعيني حُسن مرأى بلا رِيا .

غدا الغُصن فيه راقصاً ونسيمُهُ ... يكرّ ُ على من زاره متعدّيا .

ترجّلَتِ الأَشجار والماء خَرّ َ إذْ ... نسيمُ الصّبا أضحى به متمشّيا .

تُغَنّي لديه الوُرْق والغصنُ راقصٌ ... فيعرقُ وجه الأَرض من كَثرة الحيا .

ومنه : .

فَعُدّ َ نفسكَ من أهل القبور بها ... فعن قليل إليها سوف تنقلُ .

واذكر مصارع قومٍ قد قضوا ومضوا ... كأَنّهم لم يكونوا بعدما رحلوا .

يا ليتَ شعريَ ما قالوا وقيل لهم ... وما الذي قد أجابوا عندما سُئِلوا .

ومن نثره C تعالى يصف قلعة ذات أودية ومحاجر : لا تراها العيون لبعد مرماها إلاّ َ

شَزْراً ولا ينظر ساكنها العدد الكثير إلاّ َ نَزْراً . ولا يظنّ ناظرها إلاّ َ أنّ َها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج ولها من الفرات خندق يحفّ ُها كالبحر إلاّ َ أن هذا عذبٌ فراتٌ وهذا ملح أ ُجاج . ولها وادٍ لا يقي لفحة الرمضاء ولا حرّ الهواجر وقد توعّ َرت مسالكه فلا ي ُداس فيه إلاّ َ على المحاجر . وتفاوت ما بين مرآه العليّ وقراره العميق ويقتحم راكبه الهول في هبوطه فكأ َنّ َما خرّ َ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق .

ومنه في صدر كتاب : وجعله لحقيقة العلياء نفساً وعيناً ولا أعدم الملك منه ناظراً ولا عينا . ولا زال على الأ َعداء يرسل من مهابته رقيبين أذناً وعينا . وأغنى بمكارمه من أن نشيم من السماء خالاً وعينا . أو نَ ِرد َ من الأرض منهلاً وعينا . وأطلع طلعة لوائه في الخافقَ ِيْن حتّ َى تخال لشمس عينا . وسيّ َر ركائب ذكره في الآفاق لا تشتكي أ َيْناً ولا عينا . وأقام ميزان القسط بين الرعايا لا يجد فيه عيناً ولا عينا . واستبعد لخدمته كلّ َ أصيَ َد َ من الملوك لكل جحفل قلباً ولكن محفِ ِل عينا . وأهلك كلّ َ عدوّ له وحاسد تارة فجأةً وتارة عينا . وأنطق لسانَ كرمه للأولياء بنون وعين وميم إذْ كتب سواه ميماً ونوناً وعينا . ومتّ َعَ َه ُ بما خصّ َه من استجلاء عرائس الحور العِ ِين بمجاهدته إِ ِذا شغل سواه عَ ِيْناء ُ من أسماء وعينا . وسطّ َر آثار مآثره محكمةً على صفحات الأيام إذْ لم ي ُبْقِ ِ لمن سلف من الملوك أثراً ولا عينا .

أبو حيّ َات التوحيدي الشافعي